العرب بين الجاهلية والاسلام
المقتربات العقائدية ودوافع الشرك

د . خالد ناجي السامرائي

كثر الحديث عن عصر الجاهلية واسهب العلماء والرواة في التطرق لها ، ووصف طبيعتها وان كان هذا الاسهاب سطحيا دون الولوج الى مسارب دقائق حياة الجاهليين وفهم مغزاها ودلالاتها .

اذ وجد العلماء والرواة المسلمون انفسهم على طرفي نقيض مع كل ما جاء به الجاهليون وما مارسوه واعتنقوه . وفي خضم حماستهم للاسلام العظيم وبيان مكامن هذه العظمة ، راحوا يسفهون الحياة الجاهلية وينتقصون من عقلية العربي الجاهلي وينعتونه بمختلف النعوت التي تدور في فلك الجهل والسفه والانحلال .

واذ لا يمكن لاي باحث منصف ان ينكر عظمة الاسلام والرسالة المحمدية التي كان لها الفضل الاول في اخراج الناس من الظلمات الى النور ، لا يمكن ان ننكر أيضاً ونتقاطع بشكل مطلق مع كل جزئيات الحياة الجاهلية ، ويمكن الاستدلال على صحة ما نذهب اليه في هذا السياق من خلال اقرار الرسول العظيم محمد (ص) للكثير من العادات والقيم الجاهلية ، فحب الضيف واكرامه والذود عن الحمى والشرف والنخوة ، والنجدة والصدق والامانة واغاثة الملهوف ، والترفع عن الغدر والخيانة ، وغير ذلك كثير ، كانت مفردات تشكل جانبا مهما من حياة الجاهليين التي اكدها الرسول العظيم (ص) وحث الناس على اعتناقها والعمل بها .

العربية بخاصة يفهم جيدا ان تجريد العرب الجاهليين من كل المزايا الحضارية هو الطريق الامثل ونقطة الشروع التي استند اليها الشعوبيون واستخدموها في تدعيم دعواهم والبرهنه على صحة ما يذهبون اليه في ذم العرب ، ومن ثم اصبح الطريق امامهم سالكا في محاولتهم تقويض الاسلام وتهديمه من الداخل .

ان الحياة العربية الجاهلية غنية بالكثير مما يمكن التطرق اليه للبرهنة على صحة دعوانا ، فالعربي الجاهلي وان كان مشركا بالله فإن هذا لا يمنع انه كان يتمتع بمزايا وخصال كريمة كثيرة ، فمنهم الفارس المغوار وحامي الجار والذائد عن القيم الشريفة العزيزة فضلا عن المقتربات العقيدية والشعائرية الكثيرة مع الاسلام . ويمكننا في هذا السياق ان نستدل على خطل الكثير من

وذهب العلماء العرب وغير العرب في تسفيه الحياة الجاهلية مذهبين ، اولهما الفريق الذي وقع تحت وطاة الحماسة والعاطفة المتطرفة للاسلام فحاول بيان الفرق الشاسع بين ما جاء به الاسلام وما كان الناس عليه في الجاهلية ، وادت الغفلة وحسن النية دورهما في اعطاء الشعوبيين واعداء العروبة مادة دسمة وغنية ليستخدموها في ذكر مثالب العروبة وتعدادها ، وتجريد العرب من مزاياهم الحضارية بدعوى ان الحضارة العربية حديثة عهد ولا يتعدى عمرها عمر الاسلام ، دون الاعتراف بحقيقة ان العرب كانوا ورثة الحضارات العظيمة التي انشاها اسلافهم الساميون على الاراضي العربية .

بينما كان الفريق الثاني من العلماء والرواة وذوو الاصول غير

الاحكام والروايات التي ساقها الاخباريون عن تلك الحقبة ببيان طبيعة تلك المقتربات ومغزاها .

لعل الاشراك بالله كان حجر الزاوية في وسم العرب قبل الاسلام بالجهل والضلالة والسبب الرئيس في اطلاق مصطلح الجاهلية على تلك الحقبة من تاريخهم .

ومع اقرارنا بوجاهة الاسباب التي وقفت وراء هذا المصطلح الا ان ذلك لا يعني ان عبادة الاصنام لم يكن لها اسبابها ودلالاتها ، فقد كانت وراءها فلسفة خاصة تضرب في اعماق التاريخ . ان احدى جوانب عظمة الاسلام تكمن في انه اعطى الحلول والاجوبة الناجعة عن كل ما دار من أسئلة ، وحدد بشدة الطرق التعبدية الحقيقية بعد ان رفع عن اعين العرب غشاوة الشرك واحيا ديانة ابيهم ابراهيم ـ عليه السلام ـ هذا يعني ان طقوس الجاهليين وشعائرهم كانت محاولة للاجابة عن تلك الاسئلة واجتهادا يعبر عن الرغبة في الوصول الى نمط من الوشائج الجمعية بين الانسان وربه من جهة ، وبينه وبين الطبيعة من جهة ثانية .

ان من المسلمات في علم الانسان ان كثيرا من العادات والمعتقدات التي تسود بين الناس وتتخذ شكل تقاليد اجتماعية راسخة هي من مخلفات ديانات بدائية ، ووثنية متقدمة ، واساطير وشعائر وطقوس متوارثة وانها تطورت عبر الاجيال وتاثرت حتى بالديانات السماوية وانها تطبع سلوك كثير من الناس وتنعكس في نتاجهم الثقافي والفني والادبي ، موحدين وغير موحدين .

« وتشخص الدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية ظواهر من هذه العادات والمعتقدات ضمن مسميات شتى منها : « الشمانية » فقد اخذت من كلمة « شمن » Shaman ومعناها كاهن او طبيب «شمان » او من كلمة Shemen التي معناها صنم او معبد أو من اصل اخر . ويراد بها ديانة تعتقد بالشرك اي بتعدد الالهة او بعبادة الارواح مع عبادة الطبيعة لاعتقادها بوجود ارواح كامنة فيها ويعتقد في هذا الدين ايضا بوجود اله اعلى هو فوق جميع الارواح والقوى المؤلهة وبتاثير السحر »[١]

وقد حدد علماء تاريخ الاديان ديانات اخرى تعبد الاشياء المادية الجامدة التي لا حياة فيها وتقدسها ، لاعتقاد اصحابها بوجود قوة سحرية غير منظورة فيها تلازمها ملازمة مؤقتة ، او دائمة . واتباع هذه الديانات لا يعتقدون بقدرة هذه المظاهر الجامدة على التاثير ، بل يعتقدون ان ارواحا تسكنها هي المسؤولة عن تسيير الطبيعة ، والمظاهر الجامدة على هذا لا تحظى بقدسية لذاتها بقدر ما تمثل لاتباع هذه الديانات منازل للارواح المقدسة .

ويبدو ان بعضا من ديانات الجاهليين لم يبتعد كثيرا عن فكرة حلول روح الاله في الحجر او في رموز الطبيعة الجامدة ، وكانت عبادتهم للاصنام في حقيقتها عبادة للروح التي تسكنها والتي تقربهم الى الاله زلفى : يقول الله تعالى في محكم كتابه : « الا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار » .[٢]

« ويتبين من هذه الاية ومن ايات اخرى ان فريقا من العرب كانوا يعتقدون بوجود الله ، وانه هو الذي خلق الخلق ، وان له السيطرة على تصرفات عباده وحركاتهم ولكنهم عبدوا الاصنام وغيرها ، واتخذوا الاولياء والشفعاء لتقريبهم الى الله زلفى » .[٣]

ان فكرة التقرب الى الله من خلال مخلوقاته هي فكرة تضرب عميقا في جذور التاريخ فلا غرابة ان يعتقدها العربي الجاهلي فيتقرب الى الله (عز وجل) من خلال الاحجار والنجوم والشمس والقمر والاشجار وغيرها من رموز الطبيعة ، ولذا كانت الرموز الطبيعية تكتسب دائما اهمية استثنائية في المعتقد الجاهلي ، وحتى الاصنام التي ينحتها الانسان ويعبدها لا تعبد لكونها من نحته وابتكاره بل لانها متشكلة من الاحجار ، وهنا يكمن سر قدسيتها انذاك .

وفكرة التقرب الى الله من خلال مخلوقاته لم تقتصر على الرموز الطبيعية ، بل تجاوزتها الى المخلوقات الحية . اما ما تناقله الاخباريون عن اناس كانوا يعبدون الهة يصنعونها من التمر او سواه ثم ياكلونها حينما يجوعون فمستبعد .[٤]

اذ ان دراسة طبيعة معتقد الجاهليين الديني ومكامن اسراره وفلسفته وبخاصة من خلال النص القراني الكريم يدفع الى الشك في صحة هذه الاخبار ، فليس من المعقول ان يعبد العربي الها مصنوعا من التمر ثم ياكله ، فهذا المنحى مخالف تماما لفكرة عبادة الاصنام التي تتشكل من الاحجار التي يعتقدون بحلول الروح فيها ، فالتمر على هذا لا يصلح مادة لصنع الاصنام لانه لا يمتلك من السمات ما يؤهله لحمل روح الاله ، ثم ان اكل هذا الاله يحيله الى ما يانف الجاهلي من الاقتراب منه .

وهناك الكثير من الاشارات التي تفيد ان اقواما سامية قطنت المنطقة العربية وما حولها ، كانوا يحرقون الهتهم او ملوكهم الذين عبدوهم ، وقد حدت هذه الطقوس ببعض الباحثين « الى الظن بان هذه العادة ، كانت مبنية على فكرة قوى النار التطهيرية ، فهي اذ تاتي على العناصر التي لابد ان تفسد وتفنى في الانسان تجعله اهلا للاتحاد بما هو الهي ولا يقبل الفناء ، والاناس الذين كانوا يصنعون الهتهم من شبه انفسهم ، ويتصورون ان الالهة معرضة لما هم معرضون له من انحلال وموت ، من الطبيعي ان يظنوا ان النار ستغدق على الالهة ما تغدق على البشر حسب اعتقادهم فيحسبون انها تطهرهم من رجس الفساد والانحلال ، تفريل الفاني من الخالد في تكوينهم وتضفي عليهم شبابا ازليا »[٥]

فهم لا يأنفون من حرق الهتهم وملوكهم الذين عبدوهم قبل

الاله والتخلص منه ، انما يعتقدون جازمين انهم بحرقه يبقونه حيا الى الابد ، بعيدا عن يد الانحلال والفناء ، فكومة الرماد المتخلفة ما هي الا جلده الذي نضاه عنه اما هو فبعيد في عوالمه الاثيرية في السماء ، فوق الاشجار ، يطير مع الريح ، ينزل مع المطر ، ينبت مع الحشائش والورود .

فهل كان العربي الجاهلي بعيدا عن روحية هذه العادة المقدسة وان لم يلجأ اليها ؟

نقول : انه ليس من المنطق بمكان ان يحيل العربي الجاهلي الهه الى محض فضلات بينما دأب اسلافه الساميون على البحث عن عوالم اثيرية لارواح الهتهم تبعدها عن نجاسة الارض وما يعلق باجسادها من شوائب .[٥]

وقد اولت الديانات السامية بعامة والعربية منها بخاصة اهمية استثنائية للروح ، فكان الاحياء يحملون من القدسية ما لا يحمله الاموات ، فقد كان « ملوك بابل الاوائل يعبدون بصفتهم الهة ما داموا احياء »[٦] وان هذه الصفة تنتفي عنهم بمجرد موتهم وتنتقل بطريقة ما يعتقدونها الى من يخلفهم ، وفكرة التقرب الى الله من خلال البشر واعتقاد بعض الناس بها مصورة في بعض مواضع القران مثلما ورد في سورة يوسف حين اراد اخوة يوسف التوبة والرجوع الى الله ، فانهم لجأوا الى ابيهم ليدعو لهم الله ليغفر لهم « قالوا يا ابانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين * قال سوف استغفر لكم ربي انه هو الغفور الرحيم » .[٧] فاخوة يوسف الذين ثقلت عليهم السيئات لالقائهم اخيهم في الجب ، رأوا ان دعاءهم قد لا يجاب لمعصيتهم ربهم ، فلم يجدوا افضل من ابيهم نبي الله يعقوب (ع) ليفعل ذلك لانهم اعتقدوا انه نبي مقرب ودعاؤه يلقى استجابة افضل من الله تعالى وبخاصة لكونه من تحمل تبعة اثامهم ، وورد عن انس (رض) انه قال : (قحط الناس فاستسقى عمر بالعباس وقال : اللهم انا كنا اذا قحطنا نتوسل اليك بنبيك فتسقينا وانا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا ، قال فسقوا)[٨]

هذا الامر يدلل على ان المسلمين الاوائل اقروا مثل هذه العادات بعد ان شذبوها ورفعوا عنها ما يعتريها من شوائب الوثنية والشرك واعطوها مسحة الايمان والتوحيد .

واتخاذ المشركين الانداد لله ، والوسائل للوصول اليه ومناجاته لا ينفي ايمانهم بوجود اله خالق اعظم ، هذا الايمان تؤكده ادلة نقلية كثيرة ، والا فما معنى ان يؤمن العرب بان الكعبة بيت الله ؟ وما معنى ان يقدسوها كل هذا التقديس ويجتنبوا صيد طيرها وسفك الدم في حرمها ؟

انهم كانوا يتشبثون ببقايا ديانة ابيهم ابراهيم (ع) وان ادخلوا عليها الكثير من المعتقدات والشعائر التي لا تمت لها بصلة ، فلولا ايمانهم بالخالق الاعظم لما ركن عبد المطلب بن هاشم الى الله سبحانه ولما اوكل اليه حماية بيته يوم انبرى ابرهة الاشرم مصطحبا فيله لهدم البيت العتيق ، حينها اكتفى عبد المطلب بالسعي لاسترداد عدد من الابل كان جيش ابرهة قد صادرها وقال قولته الشهيرة حين عوتب بانه يهتم بامر الابل في الوقت الذي يتهدد الكعبة خطر داهم : « انا رب الابل وللبيت رب يحميه » فهل كان عبد المطلب ينتظر حماية البيت والذود عنه ضد جيش الاحباش اللجب من بضعة احجار منحوته ام انه كان يعلم علم اليقين ان للبيت رباً لا ينام ؟ رباً يشعر ويتحسس ويسمع ويرى ما يراد ببيته وحرمه وحرمته فكان نصر الله لبيته اية خلدها القران تمثلت بطير ابابيل ترمي الجيش الاثم بحجارة من سجيل فجعلته كالعصف الماكول .

ولم يغفل الشعراء الجاهليون الاشارة الى الله (جل شانه) والتنويه بصفاته القدسية ، الامر الذي يشير بصراحة الى ايمان عميق برب الارباب وتسليم لا يشوبه الشك بقدرته غير المتناهية على الفعل . يقول طرفة بن العبد ذاكراً الله العلي القدير الذي لا حكم سوى حكمه :

وتقول عاذلتي وليس لها
بغدٍ ولا ما بعده علمُ
ان الثراء هو الخلود وان
المرء يكرب يومه العُدمُ
ولئن بنيت الى المشقّر في
هضب تُقصّر دونه العصمُ
لتُنقبَنْ عني المنية ا
نّ الله ليس لحكمه حُكمُ[٩]

وحكم الله الذي لا يقف امامه شيء ولا يحول دونه حائل يتبدى من خلال عطائه ومنحه الارزاق . فهو المعطي وهو المجزي ، فلم يصل الينا ما يشير الى ان الجاهليين كانوا يسبغون هذه الصفات على غير الله فلا العزى ولا اللات ولا هبل ولا مناة ولا غيرها من الاصنام كانت توسم بهذه الصفات . وهذا يدل على وعي عال بالفرق بين من يعطي ويمنع ويحيي ويميت وبين الاصنام التي تتوسط بين المرء وبين الاله الاكبر لعدم الاهلية للصلة المباشرة معه على حسب اعتقادهم .

يقول النابغة الذبياني عن عطاء الله (جل جلاله)

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم
من الجود والاحلام غير عوازب[١٠]

ويقول ايضا في معرض مديحه للنعمان بن المنذر ملك الحيرة مشيرا الى ان الله هو الملاذ الاخير للانسان وليس ثمة ملاذ اخر بعده :

حلفت ، فلم اترك لنفسك ريبة
وليس وراء الله للمرء مذهبُ[١١]

ثم يضيف مشيرا الى ان الله قد اعطى النعمان ، وليس إله غيره يعطي :

الم تــر ان الله اعطاك سورة
ترى كل ملك دونها يتذبذب[١٢]

وحاتم الطائي كان يؤمن هو ايضا بأن الارزاق من عند الله ، ويبدو ان هذه الفكرة كانت متداولة بين العرب بتاثير الحنيفية ، يقول :

فلا تلتمس رزقا بعيش مقتر
لكل غد رزق يعود جديد
الم تر ان الرزق غاد ورائح
وان الذي اعطاك سوف يعيد[١٣]

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة اشار الله فيها الى ان فئة من الكفار كانوا يؤمنون بالله وقدرته وسطوته وانه خالق كل شيء ، يقول عز من قائل : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ، فأنى يؤفكون » .[١٤]

وفي سورة اخرى سؤال اخر موجه للمشركين « ولئن سألتهم من انزل من السماء ماء فاحيا به الارض من بعد موتها ، ليقولن الله قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعقلون »[١٥]

« وطالما كان الايمان بالله موجوداً وان شابه الشرك وتأمه وهو معاني الركون الى احجار اتخذها اصحابها واسطة بينهم وبين الله ، فان الايمان بعالم ما بعد الموت كان موجودا ايضا ، ولكن بحدود ضيقة . فقد اشار الشعراء الجاهليون في مواضع من اشعارهم الى فكرة الايمان بيوم الحساب وعالم ثان يحيا فيه الانسان وينشر فيه الناس بعد موتهم ويسألون عما اقترفته ايديهم وما جنته انفسهم ، يقول طرفة بن العبد في اشارة واضحة الى ايمانه بان الانسان مسؤول عن اعماله محاسب على سيئاته :

تكيفه يرجو المرء دهراً مخلداً
واعماله عما قليل تحاسبه[١٦]

ومثلما آمن طرفة بالحساب واليوم الاخر آمن حاتم الطائي بان الله قادر على ان يحيي العظام وهي رميم وينشر الموتى للحساب يقول :

اما والذي لا يعلم الغيب غيره
ويحيي العظام البيض وهي رميم
لقد كنت اطوي البطن والزاد يشتهى
مخافة يوما ان يقال لئيم[١٧]

ويقول زهير بن ابي سلمى في السياق ذاته :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم
ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر
ليوم الحساب او يعجل فينقم[١٨]

وكان للجاهليين بعض المعتقدات التي تدل على ايمان باليوم الاخر . ومن ذلك ما يفعلونه حين يموت الرجل منهم ، حيث يعمدون الى راحلته التي ركبها ، فيوثقونها على قبره معكوسة راسها الى يدها ، ملفوفة الرأس في وليتها ، فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت ليركبها اذا خرج من قبره . وكانوا يقولون ان لم يفعل هذا ، حشر يوم القيامة على رجله وكانت تلك الناقة التي يفعل بها هذا تسمى « البلية » وقال ابو زبيد الطائي ، وذكر نساء مسلبات في ماتم فشبههن بالبلايا :

كالبلايا رؤوسها في الولايا
مانحات السموم حر الخدود[١٩]

وقال عمرو بن زيد الكلبي يوصي ابنه :

ابني زودني اذا فارقتني
في القبر ، راحلة برحل قاتر
للبعث اركبها اذا قيل اظعنوا
مستوسقين معا لحشر الحاشر
من لا يوافيه على عيرانة
والخلق بين مدفع او عاثر[٢٠]

وكانوا يسمون الطريق الذي يقطعونه وصولا الى المستقر الاخروي « الهار » ويعتقدون انه واد سحيق طويل يزدحم فيه الناس ويتدافعون . يقول جريبة بن اشيم الفقعسي يوصي ابنه ايضا ليعد له بلية صالحة تعينه على عبور الهار

يا سعد اما اهلكن فانني
اوصيك ان اخا الوصاة الاقرب
لا تتركن اباك يعثر راجلا
في الحشر يصرع لليدين وينكب
واحمل اباك على بعير صالح
وتق الخطيئة انه هو اصوب
ولعل لي مما جمعت مطية
في الهار اركبها اذا قيل اركبوا[٢١]

ولهذه الاسطورة الدالة على الايمان باليوم الاخر وبحياة ثانية نظائر في ميثولوجيا العراقيين القدامى ومن بعدهم المصريين والاغريق ، اذ تمثل في الميثولوجيا الاغريقية واسطة العبور الى العالم الاخر وهي الناقة في الحالة العربية ـ بقطعة نقود توضع تحت لسان الميت وتدفن معه . يعتقد الاغريق انها ستعين الميت على رشوة ملك النهر في العالم السفلي لكي ينقله بزورقه الى الضفة الاخرى حيث المستقر الاخير ، اما الفراعنة فامرهم اشهر من ان يغيب عن احد ، اذ تمثل الاهرامات بما تضمه من مومياء الفرعون وحوائجه وكنوزه وخدمه خير معبر عن الايمان بعالم ثانٍ يُنشر فيه الملك فيجد كل ما يحتاج اليه .

ومع وجود دلائل على تاثر العرب الجاهليين بالاقوام المجاورة لهم ولا سيما الساميين منهم الا اننا لا نملك جوابا قاطعا عن الكيفية التي تصور فيها « اولئك الجاهليون حدوث

البعث والحشر ، هل هو قصاص وثواب ، وعقاب وحساب ، وجنة ونار ، او هو بعث وحشر لا غير ، فاهل الاخبار لم ياتوا عنه بجواب ، ولم يذكروا رأي تلك الفئة المقرة بالبعث والحشر في ذلك . ولهذا فليس في استطاعتنا اعطاء صورة واضحة عن الحشر وعما يحدث بعده من تطورات وامور »[22] على حسب معتقد الجاهليين .

وعلى الرغم من هذه الاشارات الدالة على ايمان فئة من الجاهليين باليوم الاخر الا ان ما ورد في القران الكريم يشير بوضوح الى ان الاكثرية الغالبة من اهل الجاهلية لم يكونوا يؤمنون الا بالحياة الدنيا ، ومن هؤلاء مشركو قريش الذين جادلوا الرسول (ص) في اليوم الاخر واستهزأوا به حين اعلمهم انهم مبعوثون ليوم لا ريب فيه يحاسبون على اعمالهم . يقول الله سبحانه وتعالى حكاية عن المشركين : « وقالوا ان هي الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين »[23]

بل ان الايمان باليوم الاخر جوبه باشد انواع الجحود والمعارضة ، وكان علامة مميزة للامم الكافرة . فكم من امة سلفت جاءها رسول من رسل الله يدعوهم الى الوحدانية والى الايمان بعالم الغيب والتسليم باليوم الاخر كفرت واصمت اذانها عن سماع الحق . يذكر الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه حكاية امة من تلك الامم « ثم أنشانا من بعدهم قرنا اخرين * فارسلنا فيهم رسولا منهم ان اعبدوا الله ما لكم من اله غيره افلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الاخرة واترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا الا بشر مثلكم ياكل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون * ايعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم تخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * ان هو الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين »[24]

* اما الايمان بعالم الجن في الجاهلية فهو ايمان لا لبس فيه ، فالامثلة على ذلك لا تحصى ولا تعد ، بل ان الامر وصل بالعرب ـ بحسب بعض هذه الاخبار ـ الى الاعتقاد بان الجن تقول الشعر ، وتتقاتل فيما بينها وتقتل الرجال مثلما قتلت سعد بن عبادة ، وسمع الناس هاتفا يقول :

قـــــد قتلنـــــا سيـــــد الخــــزر ج ســــــــعد بن عبــــــــادة
ورمينـــــــــاه بسهمين فلم نُخطِ فـــــــــؤاده[25]

ورأت العرب ان البيت المشهور :

وقبــــر حــــرب في مكــــان قفــــر
وليس قــــرب قبــــر حــــرب قبــــر[26]

قد قالته الجن بالنظر لقرب مخارج حروفه وعدم القدرة على النطق به ثلاثا ووضعت له خرافة زعمت فيها ان هذا البيت مما قالته الجن بعد قتلها لحرب بن امية .

ومما نسجوه ايضا قولهم ان الجن قتلت مرداس بن ابي عامر السلمي واستهوت طالب بن ابي طالب وغيبته بعد خروجه مع قريش لقتال المسلمين في معركة بدر . وزعموا ايضا ان الجنيات قد يتزوجن من الانسيين وما شابه ذلك من اخبار يعد معظمها من نسج الخيالات الساذجة ومن صنع المخيلة الشعبية الخصبة ، المهم في هذا كله الخلوص الى نتيجة مفادها : ان من يؤمن بوجود الجن لابد ان يكون عقله ومخيلته ووعيه على استعداد للايمان بغيبيات اخرى .

* اما أخبار الامم السالفة فليس من الصواب الاعتقاد بان العرب لم يكونوا على دراية بجوانب منها ، بل انهم بشكل او باخر كانوا يعرفون نتفا من تلك الاخبار ويلمون بانباء عن غضب الهي حل بامم جاورتهم وكان كفرها مدعاة لارسال حاصب من السماء او صاعقة او امطارهم بحجارة من نار او غيرها من الوان العذاب ، واشارة الشعراء الجاهليين الى الامم السالفة كثيرة مطردة ، فها هو طرفة بن العبد يضمن شعره اخبار لقمان بن عاد وذي القرنين فيقول :

الم تـــر لقمــــان بن عــــاد تتــــابعت
عليـــه النســـور ، ثم غـــابت كـــواكبُـة
وللصعب اسبــــاب يحــــل خطــــوبهـــا
اقـــام زمـــانـا ، ثم غـــابت مطـــالبُـة
اذا الصعب ذو القـــرنين أرخى لـــواءه
الى مـــالك ســـامـاه ، قـــامت نـــوادبُـة
يسيـــر بـــوجـــه الحتف والعيش جمعـــه
وتمضي على وجـــــه البـــلاد كتـــائبُـة[27]

ويقول ايضا مشيرا الى نبي الله داود

وهم مــــا هم ، اذا مــــا لبســــوا
نســــج داود لبـــــاس محتضـــــر[28]

وعلى المنوال ذاته يتطرق النابغة الى بعض ما اصاب الامم السالفة من هلاك هو حق مكتوب على بني البشر :

ولقـــد راى ان الـــذي هـــو غـــالهم
قـــد غـــال حميـــر قيلهـــا الصبـــاحـــا
والتبعين ، وذا نــــــواس غــــــدوة
وعــــلا اذينــــة ســـالب الارواحـــا[29]

وذو نواس الذي عناه النابغة هو ملك اليمن وقصته مع اهل نجران معروفة ، اذ يذكر ان ذا نواس هذا كان على دين اليهودية واراد ان يرغم نصارى نجران على ان ينسلخوا من دينهم ويتهودوا

« فسار اليهم ذو نواس بجنوده من حمير وقبائل اليمن ، فجمعهم ثم دعاهم الى دين اليهودية ، فخيرهم بين القتل والدخول فيها ، فاختاروا القتل ، فخذ لهم الاخدود ، فحرق بالنار ، وقتل بالسيف ومثل بهم كل مثلة ، حتى قتل منهم قريبا من عشرين الفا » .[٣٠]
وقد اشار القران الكريم الى قصة اصحاب الاخدود ، اذ يقول جل شأنه : « قتل اصحاب الاخدود * النار ذات الوقود * اذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .[٣١]

اما قصة عاد التي ذكرها القران الكريم فانها كانت معروفة بشكل او باخر للجاهليين لكن ليس بتفصيلاتها القرآنية التي غابت عنهم واراد الله ان يبرهن من خلالها ومن خلال قصص اخرى لم يسمعوا بها على نبوة الرسول (ص) ودليلا على ان ما جاء به الرسول (ص) ليس من عنده بل هو وحي يوحى اليه من الله جل شانه . يقول طرفة مشيرا الى عاد وما اصابهم :

ولقــد بــدا لي انــه سيغــولني
مــا غــال عــادا والقرون فــاشعبوا[٣٢]

(ومن الاخبار الاخرى التي تناولها الشعراء الجاهليون قصة الحضر وهي مدينة في العراق بين دجلة والفرات بحيال تكريت وكان بها رجل من الجرامقة يقال له الساطرون وهو الذي يقول فيه ابو دؤاد الايادي :

وارى المــوت قــد تــدلى من الحضـ
ـر على رب اهلــــه الســـاطـــرون

والعرب تسميه الضيزن وقد ذكره الاعشى في شعره ايضا اذ يقول :

الم تــر للحضــــر اذ اهلــــه
بنعمى وهـــل خـــالـــدا من نعم[٣٣]

وقال فيه عدي بن زيد العبادي :

واخـــو الحضــر اذ بنــاه واذ دجـ
ـلــة تجبى اليـــه والخــابــورُ
شــــاده مــــرمــــرا وجللـــه كلـ
ـســا فللطيـــر في ذراه وكــورُ
لم يهبـــه ريب المنــون بنــاد الـ
ـمُلـــك عنـــه فبــابـــه مهجــورُ[٣٤])[٣٥]

وقد اخبر الله سبحانه وتعالى المشركين من خلال القران الكريم بقصص الامم السالفة وما حل بهم جزاء كفرهم وعصيانهم ، وحثهم على تجنب ما يمكن ان يحيق بهم وخاصة انهم كانوا يعرفون ديار هذه الاقوام ويمرون عليها ويشاهدون ايات الله عيانا . يقول جل شانه عن قوم لوط وخرائبهم « وان لوطا لمن المرسلين * اذ نجيناه واهله اجمعين * الا عجوزا في الغابرين * ثم دمرنا الاخرين * وانكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل افلا تعقلون » .[٣٦]

وربما لهذا السبب كان من امر العرب انهم اذا ما امطرتهم السماء بماء عزيز يطول هطوله وتصحبه الرعود والبروق يلجؤون الى كهوف الجبال وشعابها ويصطحبون معهم القيان فيسكرون على صخب الموسيقى والطبول محاولة منهم التغطية على صوت الرعد كأنهم بذلك يحاولون دفن خوفهم من عذاب الله وتناسيه ، لانهم كانوا يستحضرون ما تراكم في عقلهم الباطن من خوف تاتي لهم مما يعرفونه عن الامم الضالة التي اصبحت اثرا بعد عين كقوم صالح او قوم هود او قوم شعيب وغيرهم من الذين سكنوا في الجوار فضلا عن احساسهم بانهم على الضلالة وان ما هم عليه لا يمثل حقيقة ديانة ابراهيم (ع) وانما هي نتف من مفردات دينه دخلتها شوائب وخرافات كثيرة اخرجتهم من هذا الدين واعادتهم الى الشرك الذي جاء سيدنا ابراهيم (ع) من اجل نبذه ومحاربته .

يقول طرفة عن يوم الدجن وكيف يحاول تقصيره ـ اي عدم الاحساس بطوله نتيجة الرعب ـ بالشرب ومصاحبة النساء الحسناوات :

وتقصيــر يــوم الــدجن والــدجن معجب
ببهكنــــةٍ تحت الطــــراف المعمــــدِ[٣٧]

يقول الله سبحانه وتعالى واصفا حال المشركين في رعبهم من البروق والرعود « او كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم في اذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين »[٣٨]

* وتعد الحنيفية التي كانت معروفة الى حد ما في الجزيرة العربية اكثر المعتقدات مساساً بالاسلام واشدها اقترابا منه . فكانت فئة من العرب تتحنف وترفض عبادة الاصنام وتلتمس دين الحنيفية وهو دين ابراهيم الخليل (ع) . يقول الله سبحانه وتعالى واصفا ابراهيم (ع) : « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين »[٣٩]

ولان ابراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا ولان هاتين الديانتين دخلتهما شوائب كثيرة فان هذه الفئة المتحنفة لم تر فيهما مبتغاها ولم تطمئن نفوسها الى معتقدهما في الله ، وبالتالي فقد ظلت تلتمس دين الحنيفية التي كان عليه ابراهيم ، ومن هؤلاء الاحناف عثمان بن الحويرث ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل الذي (اعتزل الاوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الاوثان ونهى عن الموؤدة وقال : اعبد رب الخضراء ، ويبادىء قومه بعيب ما هم عليه وكان يقول : اللهم لو اعلم اى الوجوه احب اليك سجدت اليه . ولكني لا اعلمه ثم يسجد على راحته . وكان زيد اول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الاوثان . ثم خرج يلتمس دين ابراهيم (ع) فجال ارض الشام حتى اتى البلقاء فقال له راهب بها عالم : قد اظلك زمان

نبي يخرج في بلادك يدعو الى دين ابراهيم . فاقبل بسبب قول الراهب مسرعا يريد مكة . فلما توسط ارض جذام عدوا عليه فقتلوه) .(٤٠)

ومن الاحناف المشهورين امية بن ابي الصلت الثقفي الذي (يذكرون عنه انه بعد ان صبا عن قومه وتحنف ، لبس المسوح على زي المترهبين في هذه الدنيا ورافق الكتب ونظر فيها ، ليستلهم منها العلم والحكمة والرأي الصحيح ، ثم حرّم الخمر على نفسه مثل بقية المتالهين ، وتجنب الاصنام وصام ، والتمس الدين وذكر ابراهيم واسماعيل) .(٤١) ومن اشعاره في الحنيفية .

كــل دين يــوم القيـامــة عنـد اللــه
الا دين الحنيفيــــــــــة زور(٤٢)

ويُروى ان الرسول (ص) كان معجبا بشعر امية وكان حريصاً على سماعه ومن ذلك ما رواه الشريد ابن سويد الثقفي اذ قال : (انشدت رسول الله (ﷺ) مائة قافية من شعر امية بن ابي الصلت . يقول بين كل قافية « هيه » وقال : « كاد ان يسلم »(٤٣)

● فضلا عما تقدم فان الجاهليين لم يبدوا استغرابهم من انسية الرسول محمد (ﷺ)ولم يستنكروا ان يكون نبيا يمشي في الاسواق ويأكل الطعام الا من باب الجدل المحض الذي لا يراد منه الوصول الى الحقيقة بقدر ما يراد به الجحود وصم الاذان ، وقسوة القلب ولم يكن سوى امر مفتعل لا يعبر عن رأي مستقر في وعيهم . يقول سبحانه وتعالى حكاية عن المشركين : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا »(٤٤)

فاذا كان استغرابهم واستهجانهم صحيحين فاين هم من اليهود الذين جاوروهم وسمعوا منهم اخبار التوراة ونبي الله موسى (ع) ؟ واين هم من الاحناف الذين حدثوهم عن دين ابراهيم واسماعيل (عليهما السلام) ؟ واين هم من اخبار الانبياء الاخرين؟ افلم يعلموا انهم جميعا من البشر ، ياكلون الطعام ويمشون في الاسواق ، ويتزوجون وينجبون ، ويعملون ويسعون في الارض ؟

● ولم تقتصر المقتربات العقائدية بين الجاهلية والاسلام على الكليات فقط ، بل تعدتها الى جزئيات كثيرة تمثل نواهي حث الاسلام العباد على اجتنابها مثل اكل الدم ولحم الخنزير وشرب الخمر ، فكان من الجاهليين من حرم على نفسه شرب الخمر لما كان يرى فيها من وسيلة تخرج المرء من وقاره وتحط من قدره ومنزلته ، ومن ذلك ما يروى عن قيس بن عاصم المنقري انه سكر فغمز عكنة ابنته ، فلما اخبر بذلك حرمها وقال في ذلك :

رأيت الخمـر مصلحــــة وفيهـــا
خصـال تفسـد الـرجـل الكـريمـا
فــلا ، والله ، اشـربهـا حيـاتي
ولا ادعــوا لهـــا ابـدا نـديمـا
فــان الخمـــر تفضـح شــاربيهـا
وتجنيهم بهــــا الامـــر العظيمـــا
اذا دارت حميـــاهـــا تعلت
طــوالـــع تسفــه المـرء الحليمـا

ومن الجاهليين من حرم على نفسه القداح والميسر ، ومن هؤلاء عفيف بن معد يكرب الكندي وبهذا سمي « عفيفا » وكان اسمه شراحيل اذ قال :

قــــالت لي : هلم الى التصـــــابي
فقلت : عففت عمــــا تعلمينــــا
وودعت القــــداح وقـــد اراني
بهـا في الـدهـر مشغـوفـا رهينـا

وقال الاسلوم اليامي وكان ممن حرم الزنا والخمر في الجاهلية :

ســالمت قـومي بعـد طـول مظـاظـة
والسلم ابقى في الامـــور واعــرفُ
وتـــركت شــرب الـراح وهي اثيـرة
والمــومســات ، وتـرك ذلـك اشرفُ
وعففت عنــــه يـــا أميم تكــرمـــا
وكـــذاك يفعــل ذو الحجى المتعففُ(٤٥)

ومن الجاهليين من اتى فعلا وافق حكم الاسلام ، ومن ذلك توريث البنات ، فقد كانت العرب مصفقة على توريث البنين دون البنات . فورث ذو المجاسد وهو عامر بن جشم بن غنم بن حبيب بن كعب بن يشكر ماله لولده في الجاهلية للذكر مثل حظ الانثيين . فوافق حكم الاسلام(٤٦)

بل ان الظلم الذي كان سمة ملاصقة للجاهلية لم يكن فعلا اصيلا عند اصحاب الشرف والرفعة من العرب ، فقد انف معظم العرب من ان ياتوه ، وترفعوا عن سلب حقوق الغير والتعدي على حرمات الناس ، ولهذا فقد اقترن الظلم بالسفلة والسوقة دون الاشراف والسادة وكرام الناس . وليس ادل على مقت الاشراف والحريصين على السؤدد للظلم وسلب الحقوق من الحلف الذي تداعت اليه قريش واجتمعت (في دار عبد الله بن جدعان لشرفه وسنه ، وكانوا بني هاشم ، وبني المطلب ، وبني اسد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة فتحالفوا وتعاقدوا ان لا يجدوا بمكة مظلوما من اهلها او من غيرهم من سائر الناس الا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول ، وشهده رسول الله (ﷺ) فقال حين ارسله الله تعالى : لقد شهدت مع عمومتي حلفا في دار عبد الله بن جدعان ما احب ان لي به حمر النعم ، ولو دعيت به في الاسلام لاجبت)(٤٧)

● وعلى الرغم مما اثبتناه في بحثنا هذا وما اشرنا اليه من مقتربات عقيدية بين الاسلام والجاهلية ووشائج ثقافية واجتماعية ونفسية وصلت بينهما فان ذلك لا يعني باي حال من

الاحوال ان مرحلة الجاهلية لم تكن مرحلة قلقة مضطربة وفترة ارهاص لتغيير كبير وجديد ، ولاتعني هذه المقتربات وتلك الوشائج ان الاسلام كان امتدادا لفكرة منتشرة بين الناس عمل النبي على اظهارها وتوكيدها كما قد يزعم من ينكر فضل الرسول (ﷺ) وقدسية الوحي ولكن الاسلام كان استجابة لضرورة قائمة جاءت في حينها الموقوت من لدن رحيم عليم كتب على رسوله ان يبشر وينذر ويتحمل بصبر وجلد ضروبا من الارهاق واللجاجة والاذى . لقد شاءت ارادة الله ان يكون الاسلام الخلاصة النقية التي تبلورت فيها كل امال هذه الامة وتمثلت فيها مطالبها النفسية ، ومثلها العليا(٤٨)

فضلا عن ذلك فان تلك المقتربات ظلت منقوصة ، وقاصرة عن اداء مهمتها بالشكل المطلوب حتى جاء الاسلام ووضعها في اطارها وسياقها الصحيحين ولعل نقصانها وقصورها يعودان الى سببين رئيسين :

اولهما : ان تلك المقتربات لم ينتظمها سياق واحد يمكن ان نستدل منه على وعي جماعي باهميتها وارادة مشتركة لتمثلها ، فقلما كان العربي يمارس طقوسه ويعيش حياته مستلهما تلك المقتربات بالكامل ، بل ان الدارس يمكنه ان يخلص بسهولة الى ان تلك المقتربات التي وضعنا اليد عليها كانت خلاصة بحثية ونتاجا لفحص ونظر متمعنين لفترة الجاهلية باكملها ، انها نتف متناثرة موزعة بين هذا الشخص او ذاك ، وهذه القبيلة او تلك ، فحين تنتدب قريش الى دفع الظلم عن المقهورين كانت في الان ذاته تئد البنات وتمارس الزنا ، وكان العربي الذي يانف من شرب الخمر ، ياكل اموال الايتام او يمنع ارثه عن البنات ويستأثر بالحقوق ، والحال نفسه مع من يدعو الى السلم وينبذ التناحر ويستقسم بالازلام ويرابي في وقت واحد .

وبطبيعة الحال فان الاسلام لم يدعُ الى مكرمة وينبذ اختها ، بل انه بعقيدته السمحاء كان منظومة متكاملة لا يعتريها الوهن ولا يخترمها النقصان ، فقد دعا الى مكارم الاخلاق كلها بما تستحيل معه تلك المكارم الى دين جمعي مُلزِم قبل ان تكون نزعة اجتماعية وثقافية ونفسية يلتزمها البعض ويدعها البعض الاخر ، او ينتقي منها الشخص ما يلامس نفسه ويدع منها ما لا يراه مناسبا .

ثانيهما : ان تلك المقتربات قد افرغت من محتواها يوم اقترنت بعبادة الاصنام ويوم مارسها من يشرك بالله ويتخذ له اندادا .

ان الاسلام جاء بمحظورات عدة لا يمكن الاقتراب منها او تخطي حدودها اولها التوحيد وعدم الاشراك وما يستتبعه من خلوص العمل لوجه الله تعالى . فلا قيمة لعمل مهما كان محمودا ومهما كان متطابقا مع حكم الاسلام طالما اقترن في ذات المرء العامل وفي عقله بالشرك ، لان العمل حين لا يراد به وجه الله يتحول سعيا الى مجد شخصي ومكانة دنيوية ، قد لا يحرمها الجاهلي ولكنها ستكون في المحصلة النهائية حظه الذي لا حظ له غيره وهو في الاخرة من الخاسرين .

فالمشرك لا ينفعه الخير لان الذي ابتغاه كان لمجد او لعصبية او لسؤدد ومن ذلك ما قالته عائشة (رض) لرسول الله (ص) (ان عبد الله بن جدعان كان يطعم الطعام ويقري الضيف ، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فقال« لا : انه لم يقل يوما : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين »(٤٩)

وكان عبد الله بن جدعان من اجواد قريش وقد حجر رهطه عليه لما أسن (فكان اذا اعطى احدا شيئا رجعوا على المُعطى فاخذوه منه فكان اذا سال سائل قال : « كن مني قريبا اذا جلست فاني سالطمك . فلا ترضى الا بان تلطمني بلطمتك او تفتدي لطمتك بفداء رغيب ترضاه . وله يقول ابن قيس الرقيات :

والذي ان اشار نحوك لطما
تبع اللطم نائلٌ وعطاءُ(٥٠)

وذكروا ان امية بن ابي الصلت دخل على عبد الله وعنده قينتان له . فلما رآهما قال : « انعم صباحا ، ابا زهير » ثم انشا يقول :

أأذكر حاجتي ام قد كفاني
حياؤك ؟ ان شيمتك الحياءُ
خليل : لا يغيره صباح
عن الخلق الجميل ولا مساءُ
وارضك كل مكرمة بناها
بنو تيم وانت لهما سماءُ
اذا أثنى عليك المرء يوما
كفاه من تعرضه الثناءُ
تباري الريح مكرمة ومجدا
اذا ما الكلب اجحره الشتاءُ(٥١)

فقال له : « خذ بيد ايهما شئت » . فاخذ احداهما ثم خرج على مجالس قريش فقالوا : له : يا أمية اتيت شيخنا وسيدنا ، وعنده جاريتان له تلهيانه فسلبته احداهما فتذمم أمية من ذلك ، فرجع فلما رآه عبد الله قال له : اكفف حتى اخبرك ما الذي ردك ، جئت على قريش فقالوا لك كذا وكذا ، انا اعاهد الله لتاخذن الاخرى فان احداهما لا تصلح الا بالاخرى فاخذهما وخرج وهو يقول :

عطاؤك زين لامرىء ان حبوته
بفضل وما كل العطاء يزينُ(٥٢)
وليس بشين لامرىء بذل وجهه
اليك كما بعض السؤال يشينُ)(٥٣)

وكان مما جادل مشركو قريش به رسول الله (ﷺ) انهم قالوا : نحن اهل الحرم وسدنة بيت الله وحجابه ، يتطاولون بذلك على الناس ، ويدعون منزلة متميزة عند الله . فانزل الله سبحانه وتعالى ايات تبين لقريش ان سقاية الحجيج وعمارة المسجد

الحرام لا تعفي المرء من ان يوحد الله ولا يشرك به شيئاً ، الامر الذي يدل على ان المشرك لا ينفعه عمله ولو كان عملا كريما . يخاطب جل جلاله قريش قائلا : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الاخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين »(٥٤)

عرض اسرى هوازن على رسول الله (ﷺ) بعد ان قفل من حنين وكانت سفانة ابنة حاتم الطائي من جملة من عرض عليه ، وبعد ان استشفعت عند رسول الله (ﷺ) بفعل ابيها قال رسول الله (ﷺ) منوها بتلك الفعال ومشيدا بكرم الرجل : « ان اباها كان يحب مكارم الاخلاق » ، وحين سئل من بعض جلسائه ، ان كان يحب مكارم الاخلاق فهل ينفعه ذلك يوم القيامة ؟ فاجاب عليه الصلاة والسلام : انه كان يبغي امرا وادركه . في اشارة الى ان حاتم الطائي كان يطلب بفعاله الكريمة تلك مجدا دنيويا وصيتا ذائعا بين العرب وكان له ما اراد أما الاخرة فلها شان اخر . فكم من سيد طار ذكره في بلاد العرب كلها يكون يوم القيامة من الخاملين . وما ذاك الا لانه اشرك بالله وتقرب اليه بالاصنام .

* فهل ثمة امكانية للتوفيق بين الموقفين : الموقف الذي تقترب فيه العقائد الجاهلية من الاسلام وخاصة اذا كانت نتاجا لايحاءات يكتنفها الغموض من الحنيفية ، والموقف الذي يترتب على ذلك الغموض الذي اكتنف ايحاءات الحنيفية وادى بها الى الخروج عن المسار الصحيح والوقوع في هوة سحيقة من الخطايا يمثل الشرك اعلى سلمها .

يبدو ان الاسلام كان حادا وصارما ازاء عقد مثل هذه المقاربة ، ولعل الشرك الذي وقع فيه الجاهليون كان القشة التي قصمت ظهر البعير واستبعدت مثل هذه المحاولات المهمة في علم الاديان . وكانت تلك الصرامة من الشدة بحيث ان الباحثين لم يجرأوا على محاولة تلمس تلك المقتربات العقائدية التي نرى انها كانت اساسا انطلق منها العربي الجاهلي في تعامله مع الدين الجديد ، وكانت حافزا مهما وحقيقياً للايمان الفوري للبعض منهم ، مما يدلل على ان العرب كانوا مهيئين للاسلام وكانت ارهاصات التغيير التي مثلها الاسلام قد بدات بالتبلور منذ امد طويل سبق ولادة الرسول (ﷺ) نفسه .

كانت الجاهلية الثانية التي سبقت الاسلام بمائة الى مائة وخمسين سنة على تقدير معظم الباحثين حبلى بوليد طال انتظاره ، وعرف العرب ان اوانه قد ازف ، وانه سيخرج في ارضهم يحمل بشارة المسيح ومن قبله موسى (ع) .

ومع فهمنا لهذه الارهاصات وللنفس العربية المجبولة على الخير وللشائع من بقايا ديانة ابراهيم (ع) وللاعراف الاجتماعية الراقية نخلص الى ان المعادلة التوفيقية والتقريبية بين فترة الجاهلية وبين الاسلام جائزة وموضوعية .

ولكن واقع الحال يوحي بان تلك المقاربة ان صحت مع فئة المؤمنين الاوائل فانها لا تصح مع قريش ومعظم العرب الذين وقفوا موقفاً مضاداً من الاسلام ، هذا الموقف بدا فيه الاسلام بالنسبة لهؤلاء منبتا عما سبقه ، على العكس من موقف المؤمنين الاوائل الذين مثل لهم الاسلام حدثاً كانوا يتوقعونه وينتظرونه بلهفة وحبور ، ونتساءل : لماذا وقفت قريش ضد الاسلام ؟

بقدر ما كان موقف قريش من الاسلام مصيريا فانه اتسم بخصوصية شديدة ايضا ، ولا يبدو ان الخصوصية التي اتسم بها موقف قريش جاءته من مؤثرات فكرية او عقيدية مضادة للاسلام بقدر ما جاءته من مؤثرات وعوامل اخرى لان قريش لم تكن مختلفة عن بقية العرب بالقدر الذي يمكن ان يتبلور لديها موقف عقيدي خاص

* يبدو ان ثمة عاملين كان لهما التاثير الاعمق في عناد قريش وتكبرها واصرارها على الكفر :

اولهما : عامل الانفة والاعتزاز بتراث الاباء والاجداد :

وهو عامل لا يقتصر على قريش وحدها بل يتعداها الى معظم القبائل العربية ، فقد اصر المشركون على البقاء على ديانة ابائهم واجدادهم ورفض الاسلام الذي رأوا فيه امرا محدثا سيخرجهم مما اعتادوا عليه واستقر في نفوسهم وعقولهم الى ما ليس لهم به علم . لقد كان من الطبيعي ان يرى الجاهليون في الاسلام ثورة كبرى على تقاليدهم وموروثاتهم التي يقدسونها ويحافظون عليها ، فضلا عن ان الاسلام سفّه دين ابائهم وحث على نبذ ما كانوا عليه ، والعربي عامة والبدوي خاصة لا يقنع بضلال ابيه واجداده بسهولة ويسر ، يقول الله (جل جلاله) في هذا الشان : « واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه أباءنا اولو كان أباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون * ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون » .(٥٥)

وليس ادل على هذه الانفة وذاك الاعتزاز بتراث الاباء من اصرار ابي طالب عم الرسول (ﷺ) على البقاء على دين عبد المطلب وشيوخ قريش على الرغم من انه كان من اشد المناصرين لرسول الله (ﷺ) وكان اول من منع عنه اذى قريش ، حتى قال كتاب السيرة ان قريش لم تتمكن من الوصول الى رسول الله (ﷺ) او تمسه بسوء حتى توفي ابو طالب .

يروى انه حين بعث الرسول (ﷺ) ودعا بدعوة الاسلام وفشا امره في قريش ساله عمه ابو طالب (ما هذا الدين الذي اراك تدين به ؟ قال : « اي عم هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين ابينا ابراهيم بعثني الله به رسولا الى العباد وانت اي عم ، احق من بذلت له النصيحة ، ودعوته الى الهدى ، واحق من اجابني اليه واعانني عليه » ، فقال ابو طالب : اي ابن اخي ،

اني لا استطيع ان افارق دين ابائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يُخلص اليك بشيء تكرهه ما بقيت)[٥٦]

هذا الاعتزاز بدين الاجداد هو وحده الذي يقف حائلا بين الرجل والاسلام اذ لا يدل موقفه على قناعة راسخة بخطل حكم الاسلام ، ولا يعبر عن ايمان ثابت بصحة دين الجاهلية ، وانما تؤدي العصبية وحدها دورا في اصرار ابي طالب على ما هو عليه بوصفه امتدادا لسيرة ابائه واجداده ، اذ يروي ابن هشام إن ابا جهل وعبد الله بن ابي امية كانا حاضرين حين دعا الرسول (ﷺ) عمه الى الاسلام فوثبا عليه يسالانه باستهجان ويردانه عما ظنا انه عزم عليه من الاسلام : اترغب عن ملة عبد المطلب ، فقال : انا على ملة عبد المطلب .[٥٧]

ان ابا طالب يمتنع عن الايمان بدين يبدو انه كان يعلم علم اليقين انه الحق لانه يخاف السبة على الرسول (ﷺ) وبني هاشم ، ويأنف ان تقول عنه قريش انه آمن جزعا من الموت الذي يقترب منه ، فحين دعاه الرسول (ص) وهو على فراش الموت وحين رأى حرص الرسول (ﷺ) قال : (يا ابن اخي والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني ابيك من بعدي وان تظن قريش اني قلتها جزعا من الموت لقلتها لا اقولها الا لاسرك بها)[٥٨]

وثانيهما : العامل الاقتصادي :

فاذا كان العامل الاول مشتركاً بين القرشيين والقبائل العربية الاخرى ويعبر عن النزعة العقلية والروح البدوية اللتين انماز بهما العربي بعامة ، فان العامل الاقتصادي الذي يشكل دعامة اساسية اخرى من دعامات الشرك ودافعا اخر من دوافعه كان مقتصرا على قريش وحدها ، فقد كان القرشيون سدنة البيت وحجابه وحفظة اصنام العرب ، اذ كان في الحرم ثلاثمائة وستون صنما بقدر عدد القبائل العربية وكان العرب يحجون اليها ويطوفون بالبيت ويتاجرون ، يبيعون ويشترون وكان موسم الحج سوقا تدر على اثرياء قريش الاموال الطائلة ولهذا فان الدين عند قريش لم ينفصم عن التجارة ، بل كان للدين عندهم وجه اقتصادي واضح . وكان لوجود الكعبة في مكة الدور الفاعل في تلك المكانة المرموقة التي تميزت بها قريش من بين القبائل العربية قاطبة فعقدت الايلاف مع القبائل التي تمر تجارتها في اراضيها متجهة الى الشام صيفا والى اليمن شتاءً .

لقد كان الاسلام بالنسبة للقرشيين ثورة اقضت مضاجعهم وقوضت دعائم تجارتهم وزعزعت نظامهم الاجتماعي القائم على الطبقية وعلى استغلال الاثرياء للفقراء والعبيد ، لما ينشده من عدالة اجتماعية ولما يدعو اليه من ردم للهوة بين الاثرياء والفقراء والغاء لنظام العبودية ، الامر الذي من شانه الغاء امتياز قريش من بقية القبائل وامتياز السادة من العبيد ، وكان خوف قريش من الاسلام يتأتى ايضا من دعوته الى الوحدانية ونبذ عبادة الاصنام والدعوة الى المباشرة بين العبد وربه على اساس من ان الله موجود في كل مكان يرى ولا يُرى يسمع الدعاء ويجيب دعوة الملهوف والمظلوم وهذا ما سيؤدي حتما الى انتفاء الحاجة الى عبادة الاصنام الموجودة في مكة وانتفاء صفتها كواسطة بين العبد وربه ، فاذا كان الله في كل مكان فما حاجة العربي للذهاب الى مكة لاتخاذ صنمه واسطة بينه وبين الله ؟ وهكذا ستضمحل اهمية مكة كموئل للاصنام وكقلعة للدين ، ويتراجع دورها الاقتصادي ايضا وهذا ما لم يرده سادة قريش واثرياؤها .

ان جبروت قريش وخيلاءها لم يكن يحد من غلوائهما سوى المصالح الاقتصادية فكم من مرة انتفضت قريش بقضها وقضيضها للدفاع عن تلك المصالح بينما كانت تقدم رجلا وتؤخر اخرى في مواقف تمس صميم عقيدتها لا لشيء الا لان احجامها في مثل هذه المواقف كان ضروريا للحفاظ على امتيازاتها وتجارتها .

فلم تفكر قريش ان تغزو الرسول (ﷺ) في مدينته حتى بعدما اصبح يمثل خطرا على دينها واصبح له اتباع في القبائل العربية كلها ، ولكنها بمجرد ان هدد المسلمون تجارتها الى الشام تداعت لانقاذ اموالها ، وهبت بشبابها وشيبها مسرعة الى الحرب ، وعندما انقذ ابو سفيان عير قريش آثر بعض السادة العودة بعد ان زالت مسوغات النفير .

والشواهد على ما تمثله المصالح الاقتصادية من اهمية قصوى لقريش كثيرة متعددة ، منها ما يروى عن ابي ذر الغفاري الصحابي الجليل اذ بعد ان اسلم مبكرا في وقت كانت فيه الدعوة سرية قال له الرسول (ﷺ) : (ارجع الى قومك فاخبرهم حتى يأتيك امري) فقال والذي نفسي بيده لاصرخن بها بين ظهرانيهم فخرج حتى اتى المسجد فنادى باعلى صوته اشهد ان لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله وثار القوم فضربوه حتى اضجعوه فاتى العباس فاكب عليه فقال : ويلكم الستم تعلمون انه من غفار وانها طريق تجارتكم الى الشام وانقذه منهم)[٥٩]

ان الانفة من استضعاف الغريب والاستعلاء عن التكالب على من لا نصير له لم يمنعا قريشا من الانقضاض على ابي ذر وضربه ولكن انتساب الرجل الى غفار كان كفيلا بانقاذه وكافيا لتبتلع قريش غيظها وحنقها على امرىء تحدى كبرياءها واستفز جبروتها . فالمال قدس اقداس قريش ، وكل ما سواه يحتل المرتبة الادنى حتى وان كان ذلك مقدساتها وآلهتها .

● وخلاصة القول : ان عناد قريش واصرارها على الكفر لم يكن ينم عن ايمان فكري راسخ بجدوى دين الشرك ، ولم يكن يعبر عن قناعة بما تمارسه من طقوس وعادات وتقاليد بقدر ما كان يقف وراءه هذان الدافعان واعني دافع العصبية لتراث الاباء والدافع الاقتصادي ، ولم تتمثل قبيلة هذين الدافعين مثلما تمثلتهما قريش ، ولهذا فما ان فتحت مكة ودخلت قريش فيما دخل فيه

الناس من الحق حتى تهافتت وفود القبائل على الرسول (ﷺ) تعلن اسلامها وايمانها بالدين الجديد .

لقد كانت القبائل تراقب موقف قريش من الدعوة الجديدة وتحاكي فعلها ازاء هذه الدعوة وتتمثله ، ايمانا منها بان قريش اقدر العرب علي اتخاذ الموقف صحيح من هذا الدين بوصفها القائمة على دينهم القديم وخدمة البيت العتيق ، ولهذا فان ايمان قريش كان ايذانا بايمان معظم القبائل ، وان كان الكثير من العرب لم يدخل الاسلام بداية عن ايمان راسخ اذ سرعان ماارتدت معظم هذه القبائل بعد وفاة الرسول (ﷺ) فيما عُرف تاريخيا بحروب الردة التي قادها خليفة رسول الله (ﷺ) ابو بكر الصديق (رض) ولهذا كله فقد اكد النبي (ﷺ) مكانة قريش ودورها في قيادة العرب اذ ورد عنه (ﷺ) انه قال : « الناس تبع لقريش في هذا الشان مسلمهم لمسلمهم وكافرهم لكافرهم »[٦٠]

عندما توفي رسول الله (ﷺ) وارتدت العرب وتهيات جيوش المسلمين لقتال اهل الردة تحلق عدد من الصحابة يتحادثون (فلما دنا منهم عمر سكتوا ، فقال : فيم انتم ؟ فلم يجيبوه . فقال لهم : انكم تقولون : ما اخوفنا على قريش من العرب . قالوا : صدقت ، قال : فلا تخافوهم ، انا والله منكم على العرب اخوف مني من العرب عليكم ، والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب في اثاركم فاتقوا الله فيهم).[٦١] يبرهن ما قاله عمر بن الخطاب (رض) على سلطان قريش على العرب جميعا ، هذا السلطان الذي لم يتبدَّ في شان من شؤون الحياة مثلما تبدى في الدين والعقيدة . يقول الرسول الاعظم (ﷺ) مبينا هذا السلطان « الناس تبع لقريش في الخير والشر ».[٦٢]

فقد اتبع العرب قريشا يوم كفرت وساروا على اثارها يوم اسلمت . فكان فتح مكة فتح الفتوح بحق لانه كان نقطة الشروع في اندحار الشرك في كافة انحاء الجزيرة العربية ، ومن اجل ذلك حث الله سبحانه وتعالى رسوله الامين (ﷺ) على ان يسبح بحمد ربه ويشكره على نصره المبين الذي خلدّ الله ذكره في محكم كتابه فانزل فيه ايات بينات ، يقول عز من قائل : « اذا جاء نصر الله والفتح * ورايت الناس يدخلون في دين الله افواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا »[٦٣]

الهوامش

(١) المفصل في تاريخ العرب / د . جواد علي / جـ ٦ ، ص ٤٥ .
(٢) سورة الزمر / الاية ٣ .
(٣) المفصل في تاريخ العرب / ج ٦ ص ٤٤ .
(٤) ينظر : ذو الرمة ـ شمولية الرؤية وبراعة التصوير / د . خالد ناجي السامرائي .
(٥) ادونيس / فريزر / ص ١٣٠ ..
(٦) المصدر نفسه / ص ١٣٠ ..
(٧) سورة يوسف / الايتان ٩٧ ـ ٩٨ ..
(٨) تاريخ الاسلام / الذهبي / الخلفاء الراشدون / ص : ٢٧٧ ..
(٩) ديوان طرفة بن العبد / ص : ١٥٩ .
(١٠) ديوان النابغة الذبياني / تحقيق : محمد الطاهر ابن عاشور / ص : ٤٩ .
(١١) المصدر نفسه / ص ١٧ .
(١٢) المصدر نفسه / ص ١٨ .
(١٣) ديوان حاتم الطائي / صنعة يحيى بن مدرك الطائي / ص ٢٥٠ .
(١٤) سورة العنكبوت : الاية ٦١ .
(١٥) سورة العنكبوت / الاية ٦٣ .
(١٦) ديوان طرفة / ص : ١٤٨ .
(١٧) ديوان حاتم الطائي / دار مكتبة الهلال / ص : ٧٦ .
(١٨) شعر زهير بن ابي سُلمى / ص ١٤ .
(١٩) شعر ابي زُبيد الطائي / ص ٥٦ .
(٢٠) المحبر / محمد بن حبيب / ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
(٢١) المصدر نفسه / ص : ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
(٢٢) المفصل / جـ ٦ ، ص ١٣١ .
(٢٣) سورة الانعام / الاية ٣٠ .
(٢٤) سورة المؤمنون / الايات ٣١ ـ ٣٨ .
(٢٥) الحيوان / الجاحظ / جـ ٦ ، ص ٢٠٩ .
(٢٦) المصدر نفسه / جـ ٦ ، ص ٢٠٧ .
(٢٧) ديوان طرفة بن العبد / ص : ١٤٨ ـ ١٤٩ .
(٢٨) المصدر نفسه / ص ٥٨ .
(٢٩) ديوان النابغة الذبياني / (طبعة دار صادر) /ص : ٢٨ .
(٣٠)تاريخ الرسل والملوك / الطبري / جـ ٢ ، ص ١٢٢ ..
(٣١) سورة البروج / الايات ٤ ـ ٨ .
(٣٢) ديوان طرفة / (طبعة دار صادر) / ص ١٢ .
(٣٣) ديوان الاعشى / القصيدة ٤ / البيت ٦ / ص ٩٢ .
(٣٤) ديوان عدي بن زيد العبادي / ص ٨٨ .
(٣٥) ينظر خبر الساطرون في تاريخ الطبري / ج ٢ ، ص : ٤٧ ـ ٥٠ .
(٣٦) سورة الصافات / الايات ١٣٣ ـ ١٣٨ .
(٣٧) ديوان طرفة / ص : ٢٩ .
(٣٨) سورة البقرة / الاية ١٨ .
(٣٩) سورة آل عمران / الاية ٦٦ .
(٤٠) المحبر / ص : ١٧١ـ ١٧٢ .
(٤١) المفصل / جـ ٦ ، ص : ٤٨٤ ..
(٤٢) ديوان امية بن ابي الصلت / ص ٢٣٩ .
(٤٣) سنن ابن ماجة / جـ ٢ ، ص ١٢٣٦ والمزهر / السيوطي / جـ ٢ ، ص : ٣٠٩ .
(٤٤) سورة الفرقان / الاية ٧ .
(٤٥) ينظر المحبر / ص : ٢٣٧ ـ ٢٩١ .
(٤٦) ينظر نفسه / ص : ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .
(٤٧) الكامل في التاريخ / ابن الاثير / جـ ٢ ، ص : ٢٦ / والسيرة / لابن هشام / جـ ١ ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .
(٤٨) ينظر شعر المخضرمين واثر الاسلام فيه / د . يحيى الجبوري / ص : ٣٠ .
(٤٩) السيرة / لابن هشام / جـ ١ ، ص ١٢٤ « الهامش » .

(٥٠) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات / ص ٩٣ .
(٥١) ديوان امية بن ابي الصلت / القصيدة الاولى / ص ١٥٢ - ١٥٣ .
(٥٢) المصدر نفسه / المقطوعة ١٢٤ / ص ٣٠٨ - ٣٠٩ .
(٥٣) المحبّر / ١٢٧ - ١٢٨ .
(٥٤) سورة التوبة / الآية ١٩ .
(٥٥) سورة البقرة / الآيتان ١٦٩ - ١٧٠ .
(٥٦) السيرة / لابن هشام / جـ ١ ، ص : ٢٤٧ .
(٥٧) ينظر السيرة لابن هشام / جـ ٢ ، ص : ٤١٨ .
(٥٨) الروض الانف / السهيلي / جـ ٤ ، ص : ١٦ .
(٥٩) صحيح مسلم / بشرح النووي / جـ ١٦ ، ص : ٢٤ .
(٦٠) المصدر نفسه / جـ ١٢ ، ص ١٩٩ .
(٦١) الكامل في التاريخ / جـ ٢ ، ص : ٢٢٨ .
(٦٢) صحيح مسلم / جـ ١٢ ، ص : ١٩٩ .
(٦٣) سورة النصر .

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم .
(١) ادونيس / جيمس فريزر / ترجمة : جبرا ابراهيم جبرا / دار الصراع الفكري / بيروت . ١٩٥٧ .
(٢) أميّة بن ابي الصَّلت - حياته وشعره / دراسة وتحقيق : د . بهجة عبد الغفور الحديثي / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / ط ٢ - ١٩٩١ .
(٣) تاريخ الاسلام / شمس الدين الذهبي / تحقيق د . عمر عبد السلام تدمري / دار الكتاب العربي / بيروت / ط ٢ / ١٩٨٩ .
(٤) تاريخ الرسل والملوك / الطبري / تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم / دار المعارف بمصر / ط ٢ .
(٥) الحيوان / الجاحظ / تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون / مكتبة مصطفى البابي الحلبي / مصر / ط ٢ ١٩٦٧ .
(٦) ديوان الاعشى الكبير - ميمون بن قيس / شرح وتعليق : د . محمد محمد حسين / دار النهضة العربية / بيروت / ١٩٧٤ .
(٧) ديوان حاتم الطائي / تقديم : د . مفيد محمد قميحة / دار ومكتبة الهلال / بيروت .
(٨) ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات / تحقيق وشرح : محمد يوسف نجم / دار بيروت - دار صادر / بيروت / ١٩٥٨ .
(٩) ديوان عدي بن زيد العبادي / تحقيق وجمع محمد جبّار المعيبد / شركة دار الجمهورية للنشر والطبع / بغداد / ١٩٦٥ .
(١٠) ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي واخباره : صنعة : يحيى بن مدرك الطائي ، رواية هشام بن محمد الكلبي / دراسة وتحقيق : عادل سليمان جمال / مكتبة الخانجي / القاهرة / ط ٢ ١٩٩٠ .
(١١) ديوان طرفة بن العبد البكري مع شرح الاعلم الشنتمري / تصحيح مكس سلفسون / مدينة شالون / ١٩٠٠ .
(١٢) ديوان طرفة بن العبد / تقديم : كرم البستاني / دار صادر / بيروت .
(١٣) ديوان النابغة الذبياني / تحقيق وشرح : كرم البستاني / دار صادر / بيروت .
(١٤) ديوان النابغة الذبياني / تحقيق وشرح : محمد الطاهر ابن عاشور / الشركة التونسية للتوزيع والشركة الوطنية للنشر والتوزيع / الجزائر / ١٩٧٦ .
(١٥) الروض الانف / عبد الرحمن السهيلي / تحقيق وتعليق وشرح : عبد الرحمن الوكيل / دار الكتب الحديثة / القاهرة .
(١٦) السنن / ابن ماجه (ابو عبد الله محمد بن يزيد) / تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي / بيروت .
(١٧) السيرة النبوية / ابن هشام / تحقيق : مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي / دار احياء التراث العربي .
(١٨) شعر أبي زُبيد الطائي / جمعه وحققه : الدكتور نوري حمودي القيسي / مطبعة المعارف / بغداد / ١٩٦٧ .
(١٩) ذو الرمة - شمولية الرؤية وبراعة التصوير / د . خالد ناجي السامرائي / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / ط ١ ، ٢٠٠٢
(٢٠) شعر زهير بن أبي سُلمى / صنعة الاعلم الشنتمري / تحقيق : د . فخر الدين قباوة / المكتبة العربية / حلب / ط ١ ، ١٩٧٠ .
(٢١) شعر المخضرمين واثر الاسلام فيه / د . يحيى الجبوري / مؤسسة الرسالة / بيروت / ط ٥ ١٩٩٨ ..
(٢٢) صحيح مسلم / شرح النووي / مكتبة زهران / القاهرة .
(٢٣) الكامل في التاريخ / ابن الاثير / دار الكتاب العربي / بيروت / ط ٣ ، ١٩٨٠ .
(٢٤) المحبّر / ابو جعفر محمد بن حبيب / رواية ابي سعيد الحسن بن الحسين السكري / اعتنى بتصحيحه : الدكتورة ايلزه ليختن شتيتر / دار الافاق الجديدة / بيروت .
(٢٥) المزهر في علوم اللغة وانواعها / جلال الدين السيوطي / تحقيق : محمد احمد جاد المولى وعلي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم / دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع / بيروت .
(٢٦) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام / د . جواد علي / دار العلم للملايين / بيروت / ط ١ ، ١٩٧٠ .